حفريات في اللغة

قد تفيد المؤرخ

تأليف : محمد شفيق



حفريات في اللغة
قد تفيد المؤرخ

تأليف : محمد شفيق



تقديم

ننطلق، لو تسمحون، من معطيات جلّها معروف لدى الجميع، لكنّ التذكير بوجودها وتداخلها وتكاملها أمر ضروريّ، حتى لا تظهر الفرضيّة التي نحن بصدد عرض عناصرها وكأنها انبنت على نوع من الفراغ.

I - المعطيات الاثرية:

1 - "adebni pl. idebnan1". - "أدبني ج. ئدبنان. "ئدبنان idebnan " قبور في قلب الصحراء الكبرى، يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ. واحدها يُسمى "ادبني" باللغة الامازيغية. وهي عبارة عن تلال صغيرة من الحجارة المتراكمة، تختلف احجامها واشكالها الهندسية؛ يتراوح طولها بين بضعة امتار وثلاثمائة متر، وتتخلّلها ممرات و"حجرات". لكن علوّها لايتجاوز بضعة امتار. يوجد "ئدبنان" بكثرة في الاماكن الآتية اسماؤها: "تي ن كاويا Ti n Kawya" قرب واحة "غاط Ghât" بمنطقة "اجر Ajjer" غربي "الفزان Le Fezzan" في ليبيا؛ وقرية "تيط Tîtt" في "اهكّار Le Hoggar". وسط الصحراء الجزائرية؛ والمكان المسمى "تي ن غرهوه Ti n Gherhuh" (تي ن غرزوز بالنطق الامازيغي المغربي)، بين "ادرار Adrar" و "اهكّار Le Hoggar".

هذه المقابر الأثرية لا تزال النساء التركيات "Touarègues" يتخذنها مزارات: تتجرد الزائرة في بيتها، من كل "حرز" كتب فيه اسم الله، ثم تقصد "ادبني". وحين وصولها إليه تقرأ بعض

التعازيم، متمالكة عن ذكر الله، ثم تنام (او تتناوم) بجوار "ادبني". واثناء نومها (او تناومها) ينكشف لها - في حلم - ما كانت تريد أن تعرفه عن المستقبل او عن غائب من الأهل أو الأقارب. (Camps, II, 48, 49; Camps, I, 66,67,68,69; Foucauld, II, 793, 794, Timekelkelt; De Foucault, I, 159, édbni). أما في المغرب، فيوجد قبر أثري واحد من هذا النوع قرب واحة الطاووس، في اقصى "تافيلالت" (Camps, II, 61).

المحصل هو أن "ئدبنان" قبور (او ضرائح) مبنية بالحجارة المتراكمة في غير نظام معين، لها علاقة بالديانات القديمة، بما أنها لا تزال تتمتع بنوع من القدسية، يرجع عهدها إلى "ماقبل التاريخ".

2 - "البازينات، les bazinas". - "البازينا" عبارة عن قبر يعلوه هرم جد صغير مربع القاعدة، أو مخروط اسطواني القاعدة. "البزينا" مبنية بالحجارة المنضوضة المتراصّة التي لا ملاط معها. وهي مدرّجة او غير مدرجة. علوها حوالي المتر الواحد في المتوسط. يرجع عهد البازينات إلى ما قبل التاريخ ايضا. توجد بكثرة في منطقة الفزان، بالجهة الجنوبية الغربية من ليبيا. وفي منطقة "الشلف" الاعلى بالجزائر. (Camps, II, 63, 64; Camps, I, 84, 85, 235, 236).

نسجل أن "البزينات" متقنة البناء بالقياس إلى ما هو ملحوظ في بناء "ئدبنان"، وأنها منتشرة في "الشمال" (نسبيا) أكثر مما هي منتشرة في الجنوب، وأنها أقدم من الاهرام المصرية،

بما أن عهدها يرجع إلى ما قبل التاريخ، بينما عهد الاهرام المصرية محصور في الزمن المؤرخ له، بما أن أقدم هرم، حسب ما هو معروف إلى الآن، هو هرم الملك "جوسر Djoser" (حوالي 2700 ق. م.) المنتمي إلى الاسرة الثالثة.

3 - الضرائح الكبرى المخروطية الشكل الاسطوانية القاعدة. اثنان منها لا يزالان قائمين سالمي البناء. يوجد أولهما على بعد 100 كلم، تقريبا، غرب العاصمة الجزائرية، وغير بعيد من الساحل المتوسطي. هو ضريح ملكيّ موريتانيّ، لكن السكان المحليين سموه ب "قبر النصرانية". وهي تسمية اعتباطية تذكرنا بأن سكان جبال ازرهون لا يزالون فيما بينهم يطلقون اسم "قصر فرعون" على انقاض "وليلي Volubilis". "قبر النصرانية" عبارة عن مخروط من الحجارة المتراصة المنضوضة، تحمله قاعدة اسطوانية ذات سوار منحوتة، قطرها 62 مترا. أما ارتفاع الضريح فحوالي ثلاثين مترا. وبالداخل دهليز حلزوني ينتهي بسالكه إلى حجرة صغيرة تتوسط المبنى. ويوجد ثاني الضريحين المعروف باسم "الضريح النوميدي" في المكان المسمى ب "ميدراسن Médracen" قرب جبال الاوراس، بالجزائر أيضا. قطر قاعدة الضريح النوميدي 59 مترا، وعلوّه 19 مترا؛ وهو كثير الشبه بقبر النصرانية. هذان الضريحان مدفنان لملكين أو أميرين أمازيغيين عاشا قبل اكتساح الرومان لنوميديا وموريتانيا بقرن أو قرنين حسب ما قدره المؤرخون (Camps, I, 97, 98, 157, 152, 222, 223).

أما في المغرب فتوجد بقايا لهذا النوع من الضرائح في

قلب سهل "اسايس" (سايس، Le Saïs). داخل المثلث الذي ترسمه النقاط الثلاث: فاس، الحاجب، مكناس، خاصة بالمكان المعروف اليوم باسم "سوق القور Souk El Gour" على مقربة من قرية "عين تاوجضاط". وليس بالصدفة أطلق عرب "سايس" اسم "القور" على تلك البقايا، التي لم يعد قائما منها إلا أجزاء من قواعدها، لأن "القارة، التي التي جمعها قور، كما يقول لسان العرب". هي الأكمة، أو هي الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال، أو هي من الأصاغر من الجبال والأعاظم من الآكام... ويوجد أثر أحد هذه الضرائح في سهل الغرب على شكل تل مغطّى بالتراب، قرب مدينة سيدى سليمان (Decret et Fantar, 70).

هذه الضرائح شيدها ملوك أمازيغيون، نوميديون وموريتانيون. شيّدوها في عصور تاريخية حددت على وجه التقريب فيما بين القرنين الخامس و الأول قبل الميلاد. هي أضخم بكثير من "ئدبنان" ومن "البزينات" ومتميزة في هندستها عن أهرام مصر، لكنها تتشابه و"ئدبنان" و"البازينات" و"الأهرام" المصرية في تخطيطاتها الأساسية العامة التي تطورت مع الزمان من البساطة إلى التعقيد دون أن تفقد ميزتها الأولى، وهي اعتماد البناء بالحجارة، وتخليل المبنى بالممرات.

4 - "الركامات" المغربية الصغيرة المسماة "ئكركورن، ئكركار، ئشرشار، ئشركورن، ئشرشارن". - واحدها "أكركور، اشرشور، أشركور"، الذي عرّب فصار "كركورا"، وتصغيره "تاكركورت". حتى الثلاثينات من هذا القرن العشرين كان المغاربة يركمون الحجارة في كل مكان دفن فيه مجهول، خارج المقابر، أو اغتيل فيه إنسان

معروف الهوية ونقل جثمانه إلى المقبرة. وكان الركام الذي ركم لهذا الغرض يعتبر حرما؛ وكانت التقاليد تفرض أن لا يمسه هدم، وأن يرد اليه من يمر به كل حجرة إنفصلت عن باقي الحجارة. وبعبارة اخرى، كانت ل "أكركور" أو "تاكركورت" أو "أشرشور" قدسيته (tas de pierres sacré: Destaing, 338; Jordan, 124; Taïfi, 344). وقد عرفت شخصيا، في صغري، ثلاثة "ئشرشورن". وسنرى فيما بعد ما يربط هذه "الركامات" ب "ئدبنان" و "البازينات" و "الضرائح" النوميدية الموريتانية، وبالاهرام المصرية.

5 - الأهرام المصرية. - وهي في غير حاجة الى تعريف، من حيث هندستها ولا من حيث تاريخها. لكننا سنتساءل بعد حين عن مدلولها اللغوي الأصلي.

المستنتج من الرّبط بين هذه المعطيات الأثرية الخمسة، ومن المقارنة بينها، هو أنها، على تفاوت أزمانها واختلاف أشكالها، تنتمي إلى نمط من القبور موحّد المنشإ امتد مجاله عبر العصور، من قلب الصحراء، متّجها في تطوّره وجهة الشمال الشرقي من جهة، ووجهة الشمال الغربي من جهة أخرى؛ فتفرعت عنه أنماط ثانوية، لكنه ظل هو هو، يعتمد ركم الحجارة أو التشييد بها. وبما أن الأشياء بأضدادها، لا تظهر وحدته إلا عند التقائه في المجال بنمط آخر يعتمد الحفر في الأرض، على شكل مطامير، أو في الصخور والأجرف، على شكل ما سماه السكان المحليون بالحوانيت؛ وهو نمط من الواضح أنه مستورد من الشاطئ الشمالي والشمالي الشرقي للبحر المتوسط؛ مجاله المغاربي محصور في الساحل الشرقي الجزائري وفي الساحل

التونسي (Camps, I, 73, 74). ولا يهمنا نحن، في هذا الحديث، إلا النمط الأول.

II- المعطيات التاريخية:

الإلـه "أمـون، Ammon, Amon" ظل هو أكبر آلهة مصر القديـمة طوال تاريخ مصر القديمة؛ فكأنه هو الأصل، وما سـواه فـرع. تفرَّع عنـه "راع Râ, Rê" فصار "أمـون راع Amon-Rê" في عهد الأسـرة الرابعة. حـاول "أخ ن اتون Akhenaton" أن يحدَّ من جبروته ومن نفوذ كهنته، فأخفق. فانتصم الكهنة بتتويج "توت عنـخ امـون، Tutankhamon" بعد وفاة "أخ ن اتـون". ومن جهة أخرى، كان اليونان يشـخصون "Amon" في أعظم آلهتهم، وهو "زوس، Zeus". كما كان الرومان يشـخصونه فـي أكبر آلهتهم، وهـو "جوبيتيـر، Jupiter". وأكثـر من هـذا هو أن عـددا من أكابر اليونـان اتخـذوا "أمون" إلها لهـم متميزا عـن "زوس" وحافظوا لـه علـى اسـمه الأصلي، كمـا فعل، مثـلا، القائد العسـكري الإسـبارطي "لوسـاندروس Lusandros" المتوفى سنة 395 ق.م. (Auboyer, I, 347). "أمون" هذا عرف له معبدان رئيسـيان اثنان، معبـد "ثيبة Thèbes" فـي صعيد مصر، ومعبد واحة "سـيوه". فمـا هو أقـدم المعبدين؟ وما هـو الأصل فيهما ومـا هو الفرع؟ كان المؤرخـون يعتقدون أن الأصل هو معبـد "ثيبة"، بحكم الميل إلى الاعتقاد بأن مصر هي مصدر الإشعاع في البداية والنهاية. لكنهـم تراجعوا عن هذا الـرأي، وأخذوا يرجِّحون أولوية "سـيوه" وأقدميتهـا. (Camps, I, 215, 216). فبالإضافـة إلـى ما احتجوا بـه من الحجج فـي تغيير رأيهم، أرى من الفائـدة أن يلفت النظر إلى معطيين تاريخيـين اثنين. أولهما أن اليونانيين القدماء كانوا يسمون الامازيغيين الليبيين، سكان "سيوه" وماجاورها بالأمونيين

"Ammonioi" واشـتقوا من الاسم نفسـه "ammoniac" الدال على ملح تفور به عيون المياه في سيوه (Bailly, 100). وسيوه الآن مجموعة واحات، إحداها تسمى "أغرمي، Aghormi". وبها توجد بقايـا معبد "أمـون" (Laoust, V). أما المعطـى التاريخي الثاني الذي يسـتحق الاعتبار فهو أن "الإسـكندر الأكبر Alexandre". حينما اكتسح مصر، وصاه مستشاروه - ومنهم "أرسطو"، كما هو معروف - وصَّوه بأن يعرِّج على سـيوه ويأخذ ما يشبه البيعة مـن كهنة "أمون" فـي معبده، إن كان يريد أن يسـتتبَّ له الأمر في مصر كلها؛ ففعل، وعبر إلى سـيوه، بجحافله، أكثر من 600 كيلومتر من الأراضي الصحراوية القاحلة. وإلى ذلك أشار الشاعر العربي الجاهلي، بقوله (لسان العرب، لابن منظور، مادة ثأط):

بلـغ المشـارق والمغـارب، يبتغـي ** أسـباب أمر مـن حكيم مرشـد.

فأتى مغيب الشـمس عند مآبها ** في عين ذي خلب و ثأط حرمد.

يقول "اللسـان" بأن البيتين لأمية (بـن أبي الصلت) أو لِتُبَّع، "يصـف ذا القرنين". ونضيف نحن أن الشـاعر أشـار إلى "أمون" بقوله "من حكيم مرشـد" وأشـار إلى عيون سيوه الفوارة بالمياه المثقلـة بملح الأمونيـاك بقوله "في عين ذي خلـب و ثأط حرمد". لأن الخلـب والثأط الحرمد هما الحمأة والطـين. والمهم هو أن زيارة الإسـكندر لسـيوة ظل صداها يتردد في المشـرق مـا يقرب من ألف سـنة، على الأقل. فسـمعه عامة النـاس بتفاصيله، حتى

إنه ألهم شاعرا جاهليا، في قلب الجزيرة العربية، قول البيتين المذكورين المتميزين بوضوحهما. ومما تجدر الإشارة إليه أن الباحث المتمزغ "روني باصي René Basset" سجل في أوائل هذا القرن أن "الكوانش Les Gouanches"، سكان الجزر الخالدات، كانوا أنذاك يزالون يذكرون اسما، هو "أمان Amman"، بمعنى السيد والمولى والرب، ويقرنونه في تعابيرهم باسم الشمس (Camps, I, 216).

والحاصل من هذه المعطيات التاريخية هو أن قرائن مهمة ترجح كفة أسبقية "أمون" السيوي، وتجعل مصدر الإشعاع الديني الأول هو معبد سيوه، الذي في قلب الصحراء؛ وبذلك تجعل سيوه هي أم الازدهار الحضاري المصري بحكم سبقها إلى فرض العقيدة. لكن المؤرخين، مع ميلهم إلى هذه الأطروحة الجديدة لم يحسموا بعد بصفة نهائية (Camps, II, 158, 159).

III- معطيات جغرافية تاريخية، تؤيدها معطيات لغوية:

تبرهن طوبوغرافية مناطق الصحراء الكبرى، كما تبرهن نوعية المرسبات الصخرية الراجعة إلى العهدين الحجريين، القديم والجديد، على أن ما هو معروف اليوم باسم الصحراء لم يكن صحراء في القديم. كانت تلك المناطق تتمتع بمناخ رطب، وكانت مكسوة بالاعشاب المعشوشبة، وبالأحراج. بل، وكانت بعض الجهات فيها تنبت أنواع الشجر، كالسنديان، والجوز، والزيتون، والميس، والصنوبر، والزيزفون، وجار الماء، والبوقيصا. وتبرهن وفرة الرسوم والنقوش الأثرية (ما يقرب من 3000) المحفوظة على صفحات الجدران والأجراف الصخرية أن وحيش الصحراء كان متنوعا، وأن جيلين، أي جنسين، من البشر تعاقبا على "تعمير" الصحراء، أولهما أسود اللون، اختفى في أواخر الألف السابع قبل الميلاد لأسباب ما؛ وثانيهما أبيض البشرة يتجلى وجوده هناك انطلاقا من الألف السادس قبل الميلاد؛ مما كان يميزه ظهور الوشم على أعضاء الأشخاص الذين رسمت لهم رسوم في عهده (Camps, I, 40, 41, 42, 43, 44; H.J.Hugot, I, II). ويؤيد ما يخبرنا به الجغرافيون والمؤرخون معطيات لغوية امازيغية، تدل على أن الصحراء الكبرى لم تكن صحراء منذ الأزل. هناك أماكن بعينها تسمى "تيط Tîtt" أي عين الماء، أو تلماس Tilmas"، وهو جمع تالمست Talmest"؛ "تيلماس" إذن هي "عيون الماء". (وبالإشارة، لهذا الجمع ما يرادفه، وهو "تيلماسين، تيلمسين، الذي به سميت "تلمسان"، مع تحريف بسيط). وهناك أماكن

تحمل اسم شجر لا ينبت إلا حيث الماء، كاسم "تيشيط Ticîtt, ticitt"، الذي معناه الخروب. وأكثر من هذا أنه يوجد بموريتانية الحالية، منطقة قاحلة شاسعة تسمى "تاكَانت Tagant"، أي الغابة...

إذن، نشأت في الصحراء حضارة بدائية أحدثها إنسان أبيض منذ العهد الحجري، إذ كانت المنطقة المعروفة بالصحراء خصبة، تشهد بذلك آثار متعددة. كان ذلك الإنسان يمارس القنص والقطاف (وُمُّود ummud بالامازيغية)؛ ثم مارس تربية المواشي؛ ويظهر أن تغير المناخ وانتقاله التدريجي من الرطوبة إلى الجفاف النسبي اضطر ذلك الإنسان إلى نوع من التخصص في تربية الضأن، لأنه قادر على التنقل من اجل الانتجاع... فلا غرابة في أن يتخذ ذلك الإنسان صورة الكبش إله له، ولا غرابة أن تصحب تلك الصورة الإله ذلك الإنسان في نزوحه البطيء المستمر نحو الشمال وتتبعه المناطق الرعوية في تقلصها. ولا غرابة أن يتخذ لذلك الإله معبد قار، في نهاية المطاف الصحراوي، بمكان تتوفر فيه العيون والبحيرات؛ فكان معبد "امون"، معبد "سيوه". هذا كله في "ما قبل التاريخ".

هذا، وتخبرنا آثار العهدين الحجريين بأن مصر، أو المنطقة المعروفة الآن بمصر، لم تكن في "ما قبل التاريخ" (او حتى في "ما قبيل التاريخ") أكثر "حضارة" من المناطق "الصحراوية" الأخرى ما لم تضح تلك المناطق صحراوية قاحلة بالفعل. أما منطقة المغرب الكبير، أي المنطقة التي تحادي الصحراء الكبرى من الجهة الشمالية الغربية فقد تأخر عن الإسهام في إنشاء الحضارة

"الصحراوية" بألفي سنة حسب التقديرات (Camps, I, 56). ويغلب على الظن أن غطاءه النباتي، الكثيف آنذاك، هو السبب، نظرا لما كان يؤويه من السباع الضارية. وعلى أي، المعروف هو أن الهجرة إليه من قبل "الصحراويين" ظلت مستمرة باستمرار التصحر.

الخلاصة أن الحضارة الصحراوية القديمة طرأ عليها تحوُّل ألجأها إلى التقلص والاستقرار في الواحات، من جهة، فتميزت بها واحة سيوه (أمون)، وظلت شاهدة لها ممثلة احسن تمثيل؛ وانزوت في وادي النيل، بحكم توفر الماء، فتطورت هناك وترعرعت، من جهة ثانية. واستمرت في نزوحها تجاه المغرب الكبير حيث حافظت، بحكم الجغرافيا والمناخ، على اعتمادها تربية الضأن خاصة، من جهة ثالثة. لاتزال قبائل مغربية تحمل اسم "أيت بو وولي Ayt Bu-wulli"، أي "بني صاحب الضأن" (وهو المترجم إلى العربية ب "الشاوية"، في المغرب وفي الجزائر، كما تُرجمت أسماء أخرى للأماكن أو للقبائل أو للأناسي.

IV- "معطى" اسطوري، أو تاريخي، له دلالته.

يحكى أن أحد أكاسرة فارس هو الذي اتخذ التاج غطاء لرأسه حتى يتميز به في مجلسه عن عامة القوم. فلما خلفه من خلفه أمر بأن يصنع له تاج أكبر من تاج سلفه... وهكذا دواليك. إلى أن أصبح التاج أثقل من أن يحمله رأس الكسرى؛ فعلق بسلسلة من ذهب إلى سقف قاعة الاستقبال فوق كرسي المُلك. لكن حجم التاج استمر في التضخم من كسرى إلى آخر. إلى أن صار تعليقه خطرا على الجالس تحته. فأوحى مهندس القصر ببناء سقف قاعة العرش على شكل تاج. وهكذا أُحدثت القبة، واستغني عن التاج. ولا يخفى ما آل إليه حجم عمائم العثمانيين الأتراك من الضخامة في تطوره من سلطان إلى سلطان.

V - المعطيات اللغوية:

1 - المعطيات اللغوية الثابتة المحققة.

أ- علاقة اللغة المصرية القديمة بالامازيغية أمر محقق، تتجلى في المعجم بصورة ما، لأن المفردات تتطور بسرعة في أشكالها الصوتية ومضامنها الدلالية. ومع ذلك لا تزال أكثر من مائة لفظة مشتركة المعاني في اللغتين: "ئغص، ئقص"، العظم؛ و"ميس"، ابن...؛ و"فود" الركبة؛ و"سو"، اشرب؛ و"أوي..."، جئ؛ و"سين، اثنان...إلخ. (Lefèbvre, 55, 116, 238, 240, 361, 361, 384, 391). وتتجلى تلك العلاقة بصورة أوضح لا غبار عليها في وحدة جل الضمائر، المتصلة منها والمنفصلة، ووحدة عدد لا بأس به من حروف المعاني، كحرف الإضافة (ن، n) وحرف التشبيه (م، ام، am, m)، وحرف الغاية والانتهاء (خر، غر، xr, ghr) (Lefèbvre, 51, 58, 104, 251, 363)). وتتجلى بالخصوص، وبصورة قاطعة، في ما سميته، بالعربية، في النحو الأمازيغي، "الصيغة الموصولية" و"الصفة المشبهة بالفعل" (شفيق، 121 إلى 136. Lefèbvre, 233 - 244). وتتجلى كذلك في وجود أفعال ينحصر عدد حروفها، أي عدد حروف مادتها الاساسية في حرفين اثنين (شفيق، 227. Lefèbvre, 114 -). ومما لفت الأنظار أن اللهجة الأمازيغية التركَية (touareègue)) هي الأكثر قرابة من المصرية القديمة (Lefèbvre, 3). والواقع هو أن التركَية هي اللهجة الأكثر

حفاظا على جذور الأمازيغية وأصولها، وذلك بمفعول انعزال التوارك وانزوائهم في "جزرهم" الصحراوية. لا يزالون يستعملون لفظة تعني "القطاف، la cueillette" في مدلولها الاصطلاحي التاريخي، وهي لفظة "ؤمود ummud" التي معناها: "الفواكه التي تجنى من الغابات والحقول دونما غرس ولا زراعة" (De Foucauld, 1153).

ب- لغة سكان واحة "سيوه" ("مون" قديما) هي الأمازيغية، لا يزالون يتكلمونها. "فلا يتعلم أبناؤهم العربية إلا عند دخولهم المدرسة" كما يقول السيد الذي يراسلني منها. عدد سكان الواحات التابعة لسيوه اليوم ستة آلاف على وجه التقريب. لم تندثر عيون "سيوه" ولا بحيراتها المحملة مياهها بالاملاح المعدنية وقد وضع المتمزغ الفرنسي "لاووست Laoust" معجما للهجة السيوية في أواخر العشرينات، طبع سنة 1931.

ج- أحد المعطيات الأساسية في هذا البحث، ولعله هو المعطى الرئيسي، وهو بيت القصيد، يتجسد في الفعل الأمازيغي الذي معناه: بنى، يبني. ذلك الفعل هو ئسكا iska، ئصكا، ئزكا، ئصشا، منطوقا هكذا في الماضي بالسين أو الصاد أو الزاي المفخمة، حسب اللهجات. صيغة الأمر فيه هي: سكو sku، صكو، زكو، صشو... أو سك sek. معناه بالضبط في اللهجات - إلا واحدة - هو: بنى، شيد؛ أو: نصب، أقام. (Taïfi, 628; Delheure, II, 200; Delheure,I, 314; Boudot - Lamotte, 526). أما اللهجة التي فيها للفعل "ئسكا" معنى آخر فهي التركَية بالذات، أي اللهجة الأكثر احتفاظا بالاصول؛ معنى

"ئسكا، ئزكا" فيها هو: دفن، أقبر، قبر. ومن مشتقاته: "تازكاوت، tazêkkawt"، بمعنى الدفن والاقبار؛ و "ازكا azêkka" بمعنى القبر. (De Foucault, 1950, 1951) والملاحظ هو أن ل "أزكا" المدلول نفسه في اللهجة القبائلية، مع أن الفعل "ئزكا" قد أميت فيها، حسب ما يظهر. (Dallet, 939). ويؤنث "أزكا" ويصغر على الوزن القياسي: "تازكا tazêkka" أو "تازكات tazêkkat". فهل بالمصادفة أطلق اسم "تازكا"، في المغرب، قرب مدينة تازا (تازة)، على جبل هرمي الشكل مدرج حينما ينظر إليه من جهة الغرب؟

2 - المعطيات اللغوية التي في حاجة إلى مزيد من الدرس والتحقيق.

أ- صيغة اسم الاله "أمون" صيغة أمازيغية، سواء أشددت الميم فيها أم خففت. ولكن ما معنى هذا الاسم، وهل له من أثر في اللغة؟

ب- "أبازين، abazin" هو الطعام القفير الذي لا إدام معه، كالخبز الجاف مثلا (Taïfi, 42)؛ ينطق في التركَية "أباهين" لأن الزاي فيها من الغالب أنه يقلب هاء (De Foucault, I, 37,) abahin). فهل من صلة لغوية بين "أبازين، abazin" (الطعام بلا إدام) وبين "بازينا، bazina" (البناء بلا ملاط، en pièrres sèches)؟ ومن سمى "البازينات، les bazina" بهذا الاسم، ومتى سماها؟

ج- "ئغرم، ighrem" معناها القرية، والحصن (le ksar). وجمعه "ئغرمان، igherman". فما قد تكون العلاقة بين هذا الجمع وبين الامازيغيين الليبيين القدماء الذين كان اليونان

والرومان يعرفونهم باسم "Garamantes"؟ مع التنبيه إلى أن الحروف الثلاثة الأخيرة في "Garamantes" أي "tes" ما هي إلا زيادة اعرابية. أما الأصل الذي لا علامة اعراب معه فهو "garaman". ومما تجدر الاشارة أليه أن اليونان كانوا ينسبون أولئك الأمازيغيين إلى جد أعلى اسمه "Garamas". كانوا يعتقدون أنه من أبناء الإله "Apollôn" المتجسد في الشمس (Gaffiot, 703 - Bailly, 389). ثم يجب التذكير بأن واحة "سيوة" التي توجد فيها بقايا معبد "أمون" اسمها الحالي هو: أغرمي، Aghormi".

د- سكان "سيوه" الحاليون يسمون أنفسهم "ئصيوان، Isiwan" (Laoust, V). واللفظة جمع، مفرده "أصيوان، asiwan" ومعنى "أصيوان" هو ذكر الحدأة (le milan). يقول ابن المنظور في "لسان العرب": الحدأة... طائر كان يصيد على عهد سليمان.... وكان من أصيد الجوارح، فانقطع عن الصيد لدعوة سليمان. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يخبرنا التاريخ بأن الإله الحافظ للملكية الفرعونية هو "هوروس، Horus" المجسد في صورة طائر جارح يرى المؤرخون أنه صقر (faucon)، وأرى أنا أنه حدأة (milan)؛ وحجتي في ذلك أن الاسم المصري يعني جنس الجوارح عامة، وأن المقصود به هو الطائر الجارح الكثير التحليق والدوران (l'oiseau planant). والحدأة أكثر تحليقا ودورانا في السماء من الصقر ومن أي جارح آخر. ولكن رأيي ليس إلا وجهة نظر تحتاج إلى مزيد من الأدلة والبراهين، وتحتاج بالخصوص إلى ما يثبت أن بين "هوروس، Horus" و"ئصيوان، Isiwann" علاقة تاريخية واضحة المعالم.

هـ - لفظة "واحة" العربية معربة عن اللفظة المصرية

العريقة في القدم "وحيت، wh'yt" التي كانت تعني القبيلة من سكان البادية. (Lefèbvre, 21). لما تحول المعنى إلى ما هو مفهوم اليوم من "الواحة" في اللغة العربية؟ أليس لأن كل عشيرة (أو قبيلة) من العشائر (أو القبائل) التي كانت تجوب الصحراء إذ كانت الصحراء خصبة اضطرت بمفعول الجفاف التدريجي إلى أن تستقر، استقرارا نسبيا، في منطقة محدودة بحدود المرعى، في مرحلة أولى، ثم إلى أن تنزوي وتركز سكنها في "رقعة" ظلت وافرة الماء، اثناء مرحلة ثانية؟ فلربما يكون ذلك هو السبب في مغايرة المفهوم العربي العصري للمفهوم المصري القديم من كلمة "واحة - وحيت". أطلق المصريون اسم "وحيت" على "القبيلة" إذ كانت القبيلة لا تزال قبيلة تبحث عن أسباب الاستقرار في منطقة ما، ولم تقتبس العربية اسم "الواحة" من المصرية إلا بعد أن تم استقرار القبيلة في "الرقعة" الصحراوية الخصبة التي استولت عليها. فصارت كلمة "الواحة" العربية يفهم منها "الرقعة الخصبة في الصحراء". ولنا في تاريخ القسم الغربي من الصحراء الكبرى ما يتقابل مع هذا كله إلى حد كبير؛ توجد معطياته في اللغة الأمازيغية، وفي اسماء القبائل.

قبائل "زناكا، Znaga" المعروفة في تاريخ المغرب الكبير هي التي تحول اسمها إلى "صنهاجة Senhaja" بمفعول النطق العربي الذي اعتمده المؤرخون. الصيغة الأمازيغية لاسمها هي "ئزناكن، Izênagen". وهي جمع لمفرد صيغته القياسية هي "أزناك Azênag". ومما يلفت النظر أن اسم "ئزناكن Izênagen" ذكر في مؤلفات الكاتب الروماني " بلينيوس، Plinius" بصيغته

الأمازيغية الدالة على الجمع، مع تحريف بسيط فرضته قواعد اللغة اللتينية من حيث النطق بالاسماء الاجنبية. (Gaffiot, 1700, Zangenae). ويبقى للباحث أن ينظر في ما قد يكون من صلة بين "أزناكَ ج ئزناكن" وبين "أزنيكَ ج ئزنيكَن" الذي معناه "الرقعة المعشوشبة" والذي لا يزال متداولا في إحدى لهجات المغرب. هل كان مدلول "أزناكَ" و "أزنيكَ" مدلولا واحدا؟ وهل يمكن أن يقرن بالتطور الذي طرأ تدريجيا على تعامل الإنسان مع المجال في المناطق المعرضة للتصحر طوال آلاف السنين؟ هل أطلق اسم "ئزناكَن" في زمن من الأزمنة على مناطق خصبة محصورة محدودة بين مناطق أخرى تم تصحرها، ثم أطلق ذلك الاسم في ما بعد على سكان تلك المناطق الخصبة المحدودة المتوفرة الكلإ والماء والمعرضة جوانبها إلى تصحر يتحيفها شيئا فشيئا؟ لماذا احتفظ سكان "فيكَيكَ Figig" باسم "زناكَا"؟ ألأنهم يسكنون مجموعة من الواحات؟ هل كانت الواحات في الصحراء، منذ ثلاثة آلاف سنة، مثلا، أوسع نطاقا بقليل أو بكثير؟ هل يعني "أزناكَ" أو "أزنيكَ" في أصل مدلوله المجال الضيق (نسبيا) المتوفر المرعى؟

و- "الهرم" في مدلوله الاصطلاحي الهندسي ليس عربي الأصل: هو مصري في الصميم؛ اقتبسته العربية من العامية المصرية، حيث كان - وربما لا يزال - يعامل تارة وكأنه جمع، وتارة وكأنه مفرد؛ صيغته الاصلية هي "ئهرام - ihram". (Graffe - Plassner). ونقرأ في كتب اللغة المصرية القديمة أن هناك صوتا، بل حرفا صامتا (consonne) لم تكن قيمته الفونولوجية ثابتة،

هو الحرف الصامت الذي يرسمه المختصون بهاء لاتينية تحتها خط (h). ويقولون إنه ينقلب خاء في بعض الحالات؛ كما يقولون إن النطق بالهاء والحاء يتغير أحيانا. (Lefèbvre, 28). هذا كله يفرض تساؤلا: ألم يكن في المصرية القديمة حرف غين، فيكون هو الذي كان ينقلب خاء، كما يلاحظ إلى اليوم في الأمازيغية: "ئغف ighef = ئخف ixef = الرأس؛ سويغ swigh = سويخ swix = شربت)؟ وهل من المجازفة أن يقال: إن بين لفظتي "ئهرام ihram" و "ئغرم ighrem" علاقة محتملة، بإمكان المؤرخين واللسانيين أن يكتشفوها، إن تعاونوا، وإن كانت هي بالفعل موجودة؟ والشرط الأساسي لكي يبحثوا عنها بنوع من الاقتناع (الموقت) بأنها موجودة هو أن يضعوا نصب أعينهم أهمية "الانجراف" الذي يطرأ عبر الأزمان على النطق بالألفاظ ما لم تدون كتابة، ومدى تطور الدلالات. قليل هو من يعرف، مثلا، أن الرمة قطعة حبل، حينما ينطق بالعبارة المشهورة "أعطاه الشيء برمته" وقليل من يعرف أصل تلك العبارة. وقس على هذا...

VI- فرضية بسيطة يوحي بها هذا الركام من المعطيات الثابتة المحققة وغير المحققة المحتاجة إلى بحث طويل.

الحضارة المصرية القديمة فرع مزدهر لحضارة بسيطة أقدم منها وأوسع مجالا، منشأها ما يسمى اليوم بالصحراء الكبرى، أو جزء من الصحراء الكبرى؛ أنشأها أناسي بيض البشرة في الحقبة "ما قبل التاريخية" الممتدة من أواسط الألف السادس قبل الميلادإلى أواخر الألف الرابع، ثم تقطع مجالها وتجزأ بسبب التصحر المستمر، قبل أن تكون قد بلغت مداها، فورثت عنها مصر زهرتها بفضل ماء النيل، واستثمرتها وجنت يانعها. كان منشئوها في أول أمرهم يجوبون مناطق شاسعة تشمل الصحراء الكبرى، قبل أن تكون صحراء، وتشمل ليبيا ووادي النيل (ليس من المستبعد أن يكون اسم النيل اسما مركبا من حرف الإضافة "ن، n" ولفظة "ئلل، ilell" التي معناها البحر أو النهر العظيم). كان منشئو تلك الحضارة يقتاتون من القنص والصيد والقطاف (ummud)، ثم، في مرحلة لاحقة، من نتاج الماشية التي صاروا يربونها وينتقلون معها. لم يكونوا في حاجة إلى سكن قار، نظرا لاعتدال المناخ. لكنهم، في مرحلة ما من تطورهم شعروا عند دفن موتاهم بضرورة تعليم مكان الدفن حتى يبقى ظاهرا للعيان معروفا. فركموا على مكان الدفن ركاما من الحجارة، فكان ذلك أول عهدهم بالبناء، في معناه الأوسع. فكان الفعل "ئزكا" بمعنى دفن وأقبر، ثم بمعنى بنى.

أما الركام المغطي لمكان الدفن فانتشر العمل به وتطور حجمه إلى أن أصبح "بزينا، bazina". فضريحا من نوع "قبر النصرانية"، فهرما كهرم "خوفو Chéops". "الكركور" (أكركور) هو إذن جد الهرم، تضخم حجمه كما تضخم حجم التاج الفارسي وحجم العمامة العثمانية. أما المادة اللغوية "غرم، ghrem" التي اشتق منها "ئغرم ج ئغرمان، ighrem pl. igherman" والتي قد تكون لها صلة بالجذر المصري "هرم، hrm". فيغلب على اعتقادي أنها تدل إما على الاستقرار في السكن، كما يدل عليه اللفظ العربي "حضر"، وإما على التشييد حينما تصبح عملية البناء تشييدا بما يستلزمه من مواد ومن تقنيات.

أما منشئو تلك الحضارة "ما قبل التاريخية" فتفرعت أرومتهم إلى فصائل، وتفرقوا بعد ما تجزأ مجالهم الشاسع بمفعول التصحر. فمنهم من مكث في الصحراء لاجئا إلى الجبال والواحات؛ ومنهم من مكث حيث كان في وادي النيل، فأخذ يتخصص في الزراعة إلى أن توفرت له أسباب العيش الهنيء المواتي لتنشيط الحضارة؛ ومنهم من اتجه وجهة المغرب الكبير منتجعا بماشيته، وبضأنه خاصة، إلى أن عمر ربوع المغرب مواصلا فيها الانتجاع والحياة الرعوية المتنقلة (Gaffiot, 1046, Numidae - Bailly, 1331, nomadia). إلى أن أخذ يستقر استقرارا جزئيا لم يمكنه من ترسيخ أقدم الحضارة بالقوة التي رسخها بها إخوانه المصريون الذين طوروا "أكركور" إلى أن صار هرما هائل الارتفاع معقد الهندسة الداخلية، صارت فيه ممرات "أدبني adebni" سراديب ودهاليز، وصارت فيه الحجارة كتلا من

الصخر عظيمة؛ لكن وجه الشبه بينه وبين "أكركور" و "أدبني" و"البازينا" و"ضريح ميدراسن" هو وجه الشبه القديم: كل من تلك المباني يعلو مكان دفن (أو قتل). لم "يزاحم" نوعها من المقابر. في مجالها الأفريقي الشاسع، إلا عدد معدود من "المطامير" و"الحوانيت" التي سبق ذكرها، والتي لا يوجد لها أثر إلا على سواحل تونس وسواحل شرقي الجزائر. ومما لا شك فيه أن المسيحية فالإسلام غيرا طقوس الدفن وطرائقه، ولم يبق من الطقوس والطرائق القديمة إلا ما ليس له شأن، ك "الكركور"...

سكان الصحراء الكبرى الأصليون، وسكان المغرب الكبير الأولون، والمصريون القدماء، إذن، سلالة واحدة، اختلطوا شيئا فشيئا في العصور التاريخية بعناصر بشرية من سلالات أخرى وفدت من الشرق والجنوب والشمال. لن يثبت هذه الأطروحة أو ينفدها، بصفة حاسمة، إلا بحوث أنثروبولوجية أثرية معمقة وفحوص بيولوجية دقيقة بطريقة "بيرنار و ضوصي، Bernard-Dausset". تلك الطريقة التي تعتمد على فحص سطوح الكريات الحمر من الدم وتبني استنتاجاتها على تصنيف الأشكال الهندسية التي تغطي تلك السطوح (J. Bernard). وباستعمالها قد يعرف حتى من أين جاء المصريون والمغاربة القدماء إلى "الصحراء الكبرى" قبل أن تكون صحراء.

المراجع المشار إليها في نص المقال، بعناوينها الكاملة:

J. Auboyer et A. Aymard, Histoire Générale des civilisations, publiée sous la direction de M. Crouzet, volume I, L'Orient et la Grèce, P.U.F, 6ème édition, 1967.

J. Bernard, le Sang et l'Histoire, Ed. Buchet/ Chastel, 1983.

J. Bernard, le Sang des hommes, Ed. Buchet/ Chastel, 1981.

A. Bailly et E. Egger, Dictionnaire grec-français, Editions Hachette, 11ème édition (1ère édition 1894). (N.B. ces deux auteurs indiquent leurs sources).

A. Boudot-Lamotte, Notes ethnographiques et linguistiques sur le parler berbère de Timimoun,Imprimerie Nationale Française, Paris, 1964.

G. Camps (I), Berbères aux marges de l'histoire, Editions des Hespérides, 1980.

G. Camps (II), les berbères, mémoire et identité, Editions Errance, 1987.

J. M. Dallet, Dictionnaire kabyle-français, Editions SELAF, Paris, 1982.

F. Decret et M. Fantar, l'Afrique du Nord dans l'Antiquité, Ed. Payot, Paris, 1981.

J. Delheure (I), Agerraw n iwalen teggargrent - tarumit, Dictionnaire ouargli-français, SELAF, 1987.

J. Delheure (II), Agraw n yiwalen, tumzabt-tfransist, Dictionnaire mozabite-français, SELAF, 1984.

E. Destaing, Dictionnaire français-berbère, Editions Ernest Leroux, Paris, 1914.

Ch. de Foucauld, Dictionnaire touareg-français, 4 volumes, Imprimerie Nationale de France, 1951.

F. Gaffiot, Dictionnaire illustré latin-français, Editions

Hachette, 1934 (N.B. Gaffiot indique ses sources).
E. Graffe [M. Plessner], Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, G.P. Maisonneuve et Larose S. A., Paris, 1975, volume III, article "haram", p. 177.
H. J. Hugot (I), le Sahara avant le désert, éditions des Hespérides, Toulouse, 1974.
H. J. Hugot (II), Sahara. Dix mille ans d'histoire. Regards sur un paradis perdu, Bibliothèque des arts, 1976.
A. Jordan, Dictionnaire berbère-français, Edition Omnia, Rabat, 1934.
E. Laoust, Siwa, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1931.
G. Lefèbvre, Grammaire de l'égyptien classique, 2ème édition, Ed. Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1955.
M. Taïfi, Dictionnaire tamazight_français, Editions l'Harmattan-Awal, Paris, 1991.

محمد شفيق، أربعة وأربعون درسا في اللغة الأمازيغية، (نحو وصرف، واشتقاق)، النشر العربي الافريقي، الرباط، 1991.